فى عالم الأحزان

تلك هى صورة من الحياة التى ولد فيها (أبو القاسم الشابى) والتى أصبح (أبو القاسم) نفسه بعد فترة جزءًا منها وعاملاً قويًا مؤثرًا فيها ، ولكن لابد أن نلقى نظرة على حياته الخاصة، وأهم شىء نلاحظه هو أن هذه الحياة كانت عادية بسيطة فى البداية ، ليس فيها عقبات أو عوائق تقف فى طريق موهبة الشاعر أو تعمل على تعطيلها بل على العكس كانت بيئة مناسبة .

كان والد (أبو القاسم الشابى) هو الشيخ محمد بن أبى القاسم ، وكان رجلاً متعلمًا متدينًا يعمل قاضيًا شرعيًا ، وقد خلق من بيته بيئة علمية تدور فيها المناقشات الفكرية والدينية والأدبية ، وفى هذه البيئة تفتح وعى الشاعر على الحياة لأول مرة ، ولم تحدث للشاعر فى حياته العائلية حوادث أخرى ذات أهمية وتأثير حتى مات والده سنة ١٩٢٩ ، وكان أبو القاسم حينذاك فى العشرين من عمره .

كانت وفاة الوالد صدمة كبيرة بالنسبة للشاعر ، لأنها دفعته إلى أن يواجه مسئوليات مادية عديدة وهو فى هذه المرحلة المبكرة من عمره ... لقد وضعته هذه الصدمة وجهًا لوجه مع الحياة فى تجاربها العملية الواقعية ، وكان حتى ذلك الحين لا يرى أحزانها ومشاكلها بطريقة مباشرة ، بل كان ينظر إليها من بعيد ، فإذا دخل معركة الحياة فائما كان يدخلها بقلب الشاعر الحساس الذى

يرى فى حياة مجتمعه وحياة شعبه ما يدعوه إلى الإقبال على هـذه المعركـة والاشتراك فيها . أما الآن فعليه أن يعول أسرته الخاصة ، وكان متزوجًـا فى ذلك الحين ، وأن يعول إلى جانب ذلك الأسرة الأخرى التى تركهـا أبـوه وراءه ، وقد كانت هذه المسئوليات الخاصة سببًا من الأسباب التى لونت شعر (أبى القاسم ، باللون الحزين المكتئب .

كان من الممكن أن نعتبر حادثة وفاة (أبيه) حادثة مؤلمة ، ولكنـه الألم العادى الذى يمر بحياة أى إنسان ، غير أن أصدقاء الشاعر الذين كتبوا عنه قد أكدوا أن هذه الحادثة كان لها تأثير غير عادى على حياته ، فكتب صـديق الشاعر (زين العابدين السنوسى) فصلاً كاملاً عن هذه الحادثة فى كتابه عن (الشابى) ... قال الكاتب :

(كانت وفاة والده خساره مادية هزت من نفس الشاعر وزعزعت مـن نظام حياته) .

والشاعر نفسه يذكر تأثير الحادثة فى شعره ، ففى قصيدة له بعنوان (قيود الأحلام) يعدد المشاكل التى تقف فى طريقه ، وتعترض أمانيه التى تتركـز فى رغبته أن يعيش حياة شعرية مليئة بالأحلام العالية والأفكار العالية معًا ، ولكنه يعجز عن تحقيق هذا الحلم بسبب (الأسرة) ومسئولياتها التى تشده إلى الواقع وتحرمه من الحياة على جناح الحلم والأفكار الشفافة :

وأود أن أحيا بفكرة شـاعـر ... فأرى الوجود يضيق عن أحلامى
إلا إذا قطعت أسبابى مـع الـ ... دنيا وعشت لوحدتى وظـلامى
لكننى لا أستطيع ، فـإن لى ... أمـا يصد حـنانها أوهامى
وصغار إخـوان يرون سلامهم ... فى الكائنات معلقًـا بسـلامى

فقدوا الأب الحانى فكنت لضعفـــ ـــهم كهفًا يصد غوائـــل الأيـــام
هجمت بى الدنيـــا على أهوالهـــا وخضمها الرحب ، العميق الطامى
فتحطمت نفسى علـــى شـــطآنه وتـــأججت فى جـــــوّه آلامـــى

هكذا يعبر الشاعر عن أن (الأسرة) التى تركها وراءه أبوه كانت ســـببًا من أسباب المأساة العميقة التى ظل يعانيها الشاعر بها طيلة حياته. ولا شك أن (الطبيعة الأخلاقية) لأبى القاسم الشابى هى التى زادت من إحساسه بمسئولية الأسرة .

وهناك دائمًا نماذج من الشعراء والفنانين يصفهم ويعبر عنهم خير تعبير قول برنارد شو : (إن الفنان يؤثر أن يترك زوجته جائعة وأبناءه حفاة وأمه تكـــدّ لتحصل على لقمتها وهى فى السبعين على أن يترك فنه كى يعمل عملاً آخر).

ولنتذكر مثلا شخصيتى الشاعرين الفرنسيين فرلين ورامبو ، فقـــد عاشـــا حياتهما الشاذة بعيدًا عن أى إحساس بالمسئولية أو أى ارتباط خلقى بالأسرة أو بالمجتمع ، لقد حطم فرلين زوجته بالهروب منـــها والإغـــراق فى حيـــاة الشذوذ ، ومحاولة فرض الشذوذ عليها ومطالبتها بأن تقبل هـــذه الحيـــاة ، وحطم رامبو حياة أمه التى كانت تكافح من أجل تربيته وتربية إخوته بعـــد وفاة والدهم ، وسقط رامبو فى حياة الشارع والظلام والـــشذوذ ، وعنـــدما التقى بفرلين عاشا حياة كان العامل المشترك فيها هو الخروج على الأخـــلاق بأوسع معانى الخروج ، ثم الإعجاب الفنى العميق المتبادل بين الشاعرين .

لم تكن طبيعة أبى القاسم تلتقى مع طبيعة هذين الـــشاعرين الفرنـــسيين الكبيرين وأمثالهما ، بل كان أبو القاسم فى جوهر شخصيته أخلاقيًا ، مزودًا

بحاسة عميقة نحو فكرة (الواجب) ... الواجب القريب الذى يتصل بالأسرة والأصدقاء ، والواجب البعيد الذى يتصل بالمجتمع والإنسانية . وطبيعة (أبو القاسم) فى هذا الجانب من شخصيته تذكرنى بطبيعة فنان عالمى هو " انطون تشيكوف " رغم اختلاف البيئة والظروف والمشاكل ووسائل التعبير الفنى عند كل فنان ... لقد كان " تشيكوف " مثلا أعلى فى شدة الحساسية نحو فكرة الواجب ، كان يحمل مسئولية أسرته الفقيرة ، بالرغم من أنه ليس أكبر الأبناء ، وكان يحمل هذه المسئولية بنفس القوة التى يحمل بها أحد القديسين فكرة من الأفكار .. يؤمن بها ، ويتحمل فى سبيلها العذاب ، وكأنه سعيد بهذا العذاب منتظر له انتظار العاشق لقاء حبيبته .. وكان تشيكوف يقدس فكرة الواجب نحو عمله كطبيب ، وكثيرًا ما كان يعالج فقراء قريته مجانًا ، ويسهر عليهم ليساعدهم ويعطيهم الدواء والحياة ، وهو نفسه مريض يحتاج إلى العون والمساعدة . وأود أن استطرد قليلاً فى الحديث عن تشيكوف لأنه يمثل مدرسة راقية من مدارس السلوك الإنسانى بالنسبة للفنانين ... ولا شك أن هذه المدرسة هى التى ينتسب إليها أبو القاسم الشابى نتيجة لتشابه الطبع والمزاج والنظرة إلى الحياة والإنسان .

لقد وقف أحد الفلاحين مرة فى الاحتفال بذكرى تشيكوف ليقول إنه يشعر بالحزن لأنه شارك قطعا فى القضاء على حياة تشيكوف ، فقد كان صبيًا فى تلك القرية التى سهر تشيكوف على أهلها يعالجهم ويبذل من لحظات عمره الثمينة ما كانت صحته المعتلة بحاجة إليه ، ولكن روحه العظيمة كانت ترفض التخلى عن إحساسها العميق بالواجب ، وكان نفس هذا الإحساس يسيطر على تشيكوف إزاء شعبه ، وقد ظهر هذا الاهتمام بآلام الشعب فى أدبه ، ولكن تشيكوف كان يقرن اهتمامه الفنى باهتمام عملى ،

فقد سافر ذات مرة إلى إحدى جزر (سيبيريا) ليكتب بحثًا دقيقًا عن حياة الناس هناك وعن مشاكلهم وتعاستهم ، وتحمل تشيكوف فى هذه الجزيرة النائية آلام البرد القارس ، والوحدة ، والاتصال المباشر بناس (نصف أحياء) .. لكنه كان يرى فى هذا عملاً واجبًا حتى تصدر قوانين أو تقوم حركة تطالب بعمل يحمى هؤلاء المعذبين المرهقين : أنصاف الأحياء ، وأنصاف الموتى .

هذه هى (الطبيعة الأخلاقية) لتشيكوف وهى نفسها الطبيعة الأخلاقية لأبى القاسم الشابى ، إنهما فنانان من معدن إنسانى واحد ، يشعران بأحزان الآخرين كأنها أحزانهما ، ويعطيان للحياة من جهدهما وحبهما ما قد يخفف ولو دمعة واحدة ، ولو لحظة واحدة من لحظات الألم التى يمر بها البشر ، إنهما يقفان بقدر ما يستطيعان فى وجه القسوة والقبح اللذين يشوهان وجه الحياة .

ومن شأن هذه الطبيعة الأخلاقية أن تجعل صاحبها واحدًا من الذين يسعون إلى احتمال الهموم والمسئوليات ولو كان ذلك على حساب أشخاصهم وإمكانياتهم الخاصة .. إنه نوع عظيم من الفنانين ، يجمع بين عظمة الحياة وعظمة الفن ، ولا يستطيع أن يعيش سعيدًا فى عالم فيه فرد واحد يشعر بالتعاسة والحزن .

وقد كان هذا هو شأن أبى القاسم الشابى ، فقد سارع إلى احتمال المسئوليات التى تركها وراءه أبوه ، بكل ما فى هذه المسئوليات من أحزان وهموم .

ويزيد هذه الطبيعة الأخلاقية عند الشابى وضوحًا ما تجده فى حديث معاصريه الذين عرفوه واتصلوا به .. يقول صديقه ومعاصره الأديب التونسى محمد الحليوى :

(إنه رجل إذا حدث لا يكاد يسمع ، وإذا ناقش لا يكاد يجـــرح ، وإذا أثنيت على شعره أو حدثته عن نفسه علت وجهه حمرة الخجل .. وهـــو لم يكن أبدًا لهاته المجالس الصاخبة المليئة بالهزر والسخف) .

هذه الصورة التى رسمها الأستاذ (الحليوى) لأبى القاسم لم يختلف حولهـــا أحد من الذين عرفوا الشابى ، وهى صورة تزيدنا علمـــا بطبيعـــة الـــشابى المتواضعة ، المحبة للواجب ، المقدرة للمسئولية فى الحياة الخاصة والعامة ، فهو فنان ليس مشغولاً بنفسه ، ولا لاهيا بمجده الشخصى وأحداث حياته الذاتية ، وهذا هو الموقف الذى يضع الفنان الموهوب فى نفس المكان الذى تضع فيه الإنسانية كل أصحاب الرسالات ، هؤلاء الذين أذابوا حياتهم من أجل فكرة أو مبدأ يتصلان بالآخرين قبل أن يتصلا بالمصلحة الذاتية والوجود الخاص .

على أن (المأساة الخاصة) فى حياة أبى القاسم لم تكن هى مجرد احتمـــال مسئوليات أسرة كبيرة ، فلقد كان أبو القاسم قادرًا على أن يحمـــل هـــذه المسئوليات ، خاصة وأنه بدأ يلمع فى تونس والوطن العربى كله وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وقد كانت هذه المنزلة الأدبية كفيلة بأن تساعده على توفير منزلة مادية مناسبة ، تجعل مشاكله أقل عنفا وحدة ، ولكـــن مأســـاة الشابى الخاصة تجسدت فى عامل آخر هو مرضه المبكر ... فقد أصيب قبـــل العشرين بمرض التضخم فى القلب ، وظل يعانى من هذا المرض ، ويحاول أن يعالجه باستمرار ، ويوقف آلامه الشديدة التى كانت تملأ حياتـــه بالعـــذاب والأسى ، وظل هذا المرض يحطم شيئًا فشيئًا جسد الشابى حتى قضى عليـــه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وقد اضطر فى السنة الأخير من حياته إلى أن يحاول تخفيف المرض بوضع (الثلج) فوق صدره لفترات طويلة ، وهذه صـــورة واحدة من صور العذاب الذى كان الشابى يعانيه فى مرضه ، إلى أن

قضى هذا المرض على الجسد الرقيق والقلب النبيل .

وقد صبغ هذا المرض حياة الشابى بالحزن ، لأنه كان يقاومه وهو يعلم أنه أقوى من العلاج وأقوى من علم الأطباء وخبرتهم ، وكان يكتم آلامه فى نفسه ليعبر عنها فى شعره ، فهو واحد من هؤلاء الذين يبتسمون وهم فى أشد لحظات المحنة ، ذلك لأنهم يرتفعون بالإنسان إلى مستواه الرفيع : ضبط النفس ومقاومة الحزن واحتمال العذاب ... وهنا أيضًا تقودنا المقارنة إلى شخصية تشيكوف الذى كان مريضًا بالسل ، والذى كان يبتسم والسعال يمزق صدره ، والدم يسيل من فمه .. ورغم ذلك كان يحاول أن يسيطر على أحزانه التى كانت تختفى من وجهه ولسانه لتستقر فى قلبه وتتسرب إلى أدبه المليء بالحزن والشفافية .

هذا المرض هو عنصر أساسى من عناصر (المأساة الخاصة) التى عاش فيها الشابى وأثرت فى شعره تأثيرًا كبيرًا ، وقد امتلأ شعره بالحديث عن قلبه الجريح الذى يهدده الموت كل لحظة .